كيف ينقذ الوعي الداخليّ والبصيرة الإنسانَ من العبث والتنافسات الدنيوية؟

دور الوعي الداخلي والبصيرة في تحرير الإنسان من الغفلة ودائرة التكرار

يعيشُ معظمُ الناس حياتهم وكأنهم في حالةٍ من السُّبات؛ ليس سباتَ الجسد بإغماض العينين، بل سباتَ الروح حين تغيب الحقيقة ويُنسى الهدف من الخَلق. في هذه الحالة، تنحصر الحياة في سباقٍ لا ينتهي، وجمعٍ للثروات، واستعراضاتٍ اجتماعية، وانشغالٍ بترفيهٍ سطحي... بل وقد تتخفّى هذه الغفلة أحيانًا في ثوبِ روحانياتٍ شكليةٍ خاويةٍ من العمق.

غير أنّ حقيقةَ الحياة أعمقُ من هذا المظهر؛ فإذا بقي الإنسانُ عند هذا المستوى، ضلّ طريقه الأصلي، ووقع أسيرًا في حلقةٍ لا نهائيةٍ من التكرار والمقارنة. والطريقُ إلى الخلاص من هذه الدائرة المفرغة هو الوعيُ الداخلي والبصيرة؛ إذ يكشف هذا الوعي أنّ الحياة ليست مجردَ أكلٍ ونوم، أو تنافسٍ على لذّاتٍ عابرة.

ولا يظهر الفرقُ بين الإنسان الواعي والغافل بوضوحٍ في الظاهر؛ فقد ترى أن كلاهما يعمل، وله أسرة، ويشارك في المجتمع. غير أنّ أحدهما يسير برؤيةٍ واضحةٍ وهدفٍ محدّد، بينما يظلّ الآخر عالقًا في تكرارٍ لا نهاية له. إنّ الوعي الداخلي والبصيرة يكسران هذه الحلقة، ويكشفان عن حقيقةٍ جديدة، حقيقةٍ تكتسب فيها حتى الأنشطة اليومية معنىً واتجاهًا مختلفين.

هذا التحوّل لا يقتصر على الفرد وحده؛ فكلُّ قلبٍ يستيقظ يمكن أن يصبح كالمصباح، يُنير محيطه ويؤثّر في الآخرين. كما أنّ نور هذا الوعي يمتدّ إلى المجالات الاجتماعية، فيسهم في نموّ المجتمع وارتقائه؛ ومن ثمّ فإنّ النموّ الفردي، إذا لم يُراعِ أثره الاجتماعي، يظلّ ناقصًا. والإنسان كائنٌ متعدّد الأبعاد؛ فإذا لم يستيقظ بُعدُه الجوهري وحقيقته الإلهية، بقيت حياته في أدنى مستوياتها، حتى لو حقّق في الظاهر نجاحاتٍ كبيرة في المجالات العلمية أو الاقتصادية أو السياسية. إنّ البصيرة والوعي الداخلي يُلفتان انتباه الإنسان إلى طاقاته الإلهية الكامنة، ويبيّنان أنّه لم يُخلق لمجرّد التنافس والاستهلاك. وفي المقابل، تُقلِّص الغفلةُ قيمةَ الإنسان إلى ممتلكاته، أو مكانته الاجتماعية، أو شهاداته العلمية، أو لذّاته الزائلة.

ومن هنا، يُعدّ الوعي الداخلي ضرورةً دائمةً في حياة الإنسان؛ إذ يُحدِث تحوّلًا في نظرته، ويمنحه بصيرةً تُمكّنه من التمييز بين الطريق الصحيح والخاطئ، وتمهّد له سبيله نحو القرب الإلهي.

ويبقى سؤالٌ جوهريّ: كيف يُبدّد الوعيُ الداخلي والبصيرةُ ظلامَ الغفلة، ويُنقذان الإنسان من التخبّط والضياع؟

أثر نور الوعي الداخلي والبصيرة في تحوّل الفرد والمجتمع

إنّ الحياة من دون وعيٍ داخليّ وبصيرةٍ تُشبه السير في الظلام. فالإنسان الذي يعيش في حالة غفلة قد يبدو في الظاهر نشِطًا وناجحًا، غير أنّه يظلّ عرضةً للحيرة والانزلاق، لافتقاده مصباحًا داخليًا يهديه إلى تمييز الطريق. ومن هنا شبَّه الحكماءُ الوعيَ الداخلي واليقظةَ بالنور: نورٍ يمنح الأمان، ويُضيء الطريق، ويهيّئ إمكان الحركة السليمة. يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): « اليقظةُ نُورٌ»[1]. هذا النور يُعين الإنسان على أن يرى مسار حياته بوضوح، ويتحرّر من التخبّط. كما يقول القرآن الكريم: « أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا»؛[2] وهذا النور هو بعينه البصيرة والوعي الداخلي، الذي لا يهب الإنسان حياةً جديدة فحسب، بل يجعله أيضًا قادرًا على الاهتداء في محيطه الاجتماعي.

وحين يشرق نور الوعي في القلب، تتبدّل نظرة الإنسان؛ فتغدو كثيرٌ من همومه وأولوياته السابقة قليلةَ الأهمية، بل قد تفقد معناها، لتحلّ محلّها أهدافٌ أعمق. وهذا التحوّل لا يعني ترك الدنيا، بل يعني وضعها في موضعها الصحيح.

ولا يقتصر نورُ الوعي على الفرد وحده؛ فحين يبلغ الإنسانُ درجةً من اليقظة الداخلية والبصيرة، تمتدّ آثارها إلى أسرته ومجتمعه، فتنعكس في اختياراته وسلوكياته. والمجتمع الذي يضمّ أفرادًا واعين يحتفظ بقدرته على التمييز بين الحقّ والباطل، حتى في أوقات الفتن والضغوط. أمّا إذا غلبت الغفلة، فإن الحيرة تتسلّل إليه، ويصبح أكثر عرضةً للانحراف

الغفلة المعاصرة وضرورة الوعي الداخلي والبصيرة

تُعدّ الغفلة من أخطر العوائق أمام النموّ الحقيقي للإنسان؛ فهي تعني تجاهل الحقيقة وهدف الخلق، والانشغال بأعمالٍ أو نجاحاتٍ أو حتى عباداتٍ خاليةٍ من الروح، من دون أن يسأل الإنسان نفسه: «لماذا جئتُ إلى الدنيا؟ وإلى أين أسير؟».

---

[1] غرر الحكم و درر الكلم ص ٤٤٨ ح ١٠٢٨٨
[2] سورة الأنعام، الآية ١٢٢

والنقطة المهمّة أنّ الغفلة لا تكون دائمًا ظاهرة؛ فقد يقضي الإنسان سنواتٍ طويلةً في السعي المهني أو العلمي، من دون أن يتأمّل الغاية النهائية من هذا السعي؛ أو قد يمضي ساعاتٍ طويلةً في شبكات التواصل الاجتماعي، بينما يبتعد في الحقيقة عن ذاته وعن المسار الحقيقي للحياة. مثل هذا الإنسان يبدو يقظًا في الظاهر، غير أنّ روحه وقلبه غارقان في سبات الغفلة.

وأمام هذا الواقع، لا توجد قوّةٌ قادرةٌ على إنقاذ الإنسان سوى الوعي الداخلي والبصيرة. ويقول أمير المؤمنين (عليه السلام): «ضادُّوا الغَفلَةَ باليَقَظَةِ».[٣] يدلّ القول على أنّ الغفلة والوعي لا يجتمعان في قلبٍ واحد؛ فكلّما ازداد الوعي عمقًا، تضاءلت الغفلة.

ويظهر أثر هذا الوعي جليًّا في تفاصيل الحياة اليومية؛ فالشخص الذي يحقق نجاحاتٍ مهنية أو دراسية، إذا لم يتوقف ليتأمّل معناها الحقيقي، فإنه يتقدّم في الظاهر بينما يظلّ في داخله ثابتًا في مكانه. وهنا يأتي دور الوعي الداخلي كجرس إنذارٍ لطيف، يهمس بسؤالٍ حاسم: «إلى أين يقودك هذا الطريق؟»

تتجلّى هذه الحقيقة بوضوح عند كثيرين ممن يمتلكون الثروة أو المكانة الاجتماعية أو حتى الإنجازات الكبيرة، ومع ذلك يفتقدون السكينة في داخلهم؛ بل يزداد إحساسهم بالقلق والفراغ يومًا بعد يوم؛ إذ إنّ مسار الحياة، إذا لم يكن منسجمًا مع هدف الخلق، تتحوّل فيه الإنجازات الظاهرية من مصدرٍ للفرح والطمأنينة إلى عبءٍ ثقيلٍ على الروح. وفي المقابل، فإنّ من يجعل البصيرة والوعي الداخلي أساسًا لحياته، يعيش — حتى في أصعب الظروف — حالةً من السكينة والرضا العميق؛ رضًا لا يأتي من نجاحاتٍ مؤقتة أو مظاهر خارجية، بل من ارتباطٍ حقيقيٍّ بمصدر الحقيقة. لقد اتخذت الغفلة في عصرنا أشكالًا حديثة، فتخفّت في ثوب الترفيه، والعلاقات، بل وحتى مظاهر التقدّم الظاهري. وهنا يأتي دور البصيرة والوعي الداخلي في كشف هذه الطبقات الخفيّة من الغفلة، والارتقاء بالحياة من مستوى الأنشطة المتكرّرة إلى مسارٍ هادفٍ واعٍ.

الترابط بين الوعي الداخلي والبصيرة

تُعدّ اليقظة، أو الوعي الداخلي، الخطوةَ الأولى للخروج من الغفلة. فهذا الوعي يُبيّن للإنسان في أيّ مرحلةٍ من حياته يقف، وما الأثر الذي ستتركه اختياراته في مصيره الأبدي. وقد وصف أمير المؤمنين (عليه السلام)

[٣] الآمدي، عبدالواحد بن محمد، غررالحكم و دررالكلم، ص ٤٢٧

هذا الوعي بأنّه نعمةٌ عظيمة.[٤] غير أنّ الوعي ليس سوى بداية الطريق؛ فبدون البصيرة، قد يظلّ حتى الإنسان الواعي واقعًا في الحيرة. فالوعي يفتح عين القلب، أمّا البصيرة فهي النور الذي يُنير الطريق. وللتوضيح، نشير إلى بعض الأمثلة:

- شخصٌ أدرك أهمية الصحّة، لكنه يفتقر إلى البصيرة، قد يلجأ إلى الحِميات الرائجة أو الأساليب غير الصحيحة، فيتعرّض للضرر.
- طالبٌ فهم قيمة التعلّم، لكنه لا يمتلك بصيرة، قد يبدّد طاقته في مساراتٍ خاطئة.
- إنسانٌ يقِظ في حياته المهنية، لكنه بلا بصيرة، قد يتأثّر بالمعايير السطحية لنجاح الآخرين.

وقد شهد التاريخ نماذجَ كثيرةً لأشخاصٍ كانوا — في الظاهر — من أهل العلم أو حتى من أهل العبادة، لكنهم، لافتقادهم نور البصيرة في قلوبهم، ضلّوا الطريق في اللحظات الحاسمة من مصائرهم.

والبصيرة هي الثمرة الحقيقية للوعي؛ فهي تعني إدراك الحقيقة وراء المظاهر، والقدرة على تقدير عواقب الأمور، وتمييز الطريق الصحيح بين الخيارات المعقّدة. وعندما يفضي الوعي الداخلي إلى البصيرة، يصبح بإمكان الإنسان أن يختار قراراته في انسجامٍ مع الهدف الأسمى للخلق.

وبذلك، فإنّ الوعي الداخلي والبصيرة خطوتان متلازمتان ومتكاملتان؛ فالوعي يُخرج الإنسان من سبات الغفلة، والبصيرة تكون له مصباحًا يهديه في القرارات المصيرية. وحين يجتمع هذان العنصران، لا تعود الحياة مجرّد سلسلةٍ من الأنشطة اليومية، بل تكتسب معنىً واضحًا واتجاهًا محدّدًا.

فما هي برأيكم — العلامات التي يمكن من خلالها تشخيص الوعي الداخلي والبصيرة لدى الأفراد؟ وكيف يمكن تعزيز هذين البعدين في حياة الإنسان المعاصر؟

[٤] اَلتَّيَقُّظُ فِي اَلدِّينِ نِعْمَةٌ عَلَى مَنْ رُزِقَهُ؛ الآمدي، عبدالواحد بن محمد، غررالحكم و دررالكلم، ص ٨٤